

من هو قريبي؟

أتى ناموسي - أي من معلّمي الشريعة اليهودية - مرة ليجرّب الرب يسوع المسيح (بشارة لوقا ١٠: ٢٥-٣٧). وطرح عليه السؤال التالي: "يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟" فقال له المسيح: "ما هو مكتوب في الناموس. كيف تقرأ؟" فأجابه الناموسي وقال: "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك وقريبك مثل نفسك. فقال بالصواب أجبت. افعل هذا فتحياً".

عندها وأمام تحدي المسيح له أراد هذا الناموسي أن يبرر نفسه، أي أن يظهر للمسيح أنه فعلاً يسلك بحسب الناموس. فهو كما يبدو يحب الرب إلهه من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل قدرته ومن كل فكره. لكن ماذا عن القريب؟ ومن هو القريب بنظر المسيح الذي يجب أن يحبه كنفسه؟ أليس هو كل يهودي مثله ومن بني جنسه؟ لهذا نجده يطرح هذا السؤال على المسيح: "من هو قريبي؟" وكأنه أراد أن يجرّب المسيح في هذا الموضوع بالذات ليرى ما سيقول. فإن اتفق معه يكون المسيح لم يأت بأي شيء جديد. وإن أتى المسيح بشيء جديد مخالف للشريعة يكون قد وقع بالفخ.

لكن الرب يسوع المسيح أجابه بمثل أو قصة ذات دلالة عميقة وقال: "إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا فوق بين لصوص فعروّه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت. فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاوي أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله. ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحنن عليه. فتقدّم وضمد جراحاته وصبّ عليها زيتاً وخبزاً وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى به. وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له اعتن به ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك". وهنا طرح المسيح هذا السؤال على الناموسي: "فأي هؤلاء الثلاثة ترى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص". فأجابه الناموسي: "الذي صنع معه الرحمة. فقال له يسوع اذهب أنت أيضاً واصنع هكذا".

كان اليهود في تلك الأيام ينظرون إلى نفوسهم بفخر واعتزاز لكونهم شعب الله المختار، والقريب بالنسبة لهم هو كل يهودي من أبناء جنسهم ودينهم. أما الشعوب الأخرى فقد كانوا يحتقرونها ويزدرون بها لأنها شعوب وثنية. وبالنسبة للسامريين، فقد كان اليهود لا يكرهونهم فحسب بل ينظرون إليهم نظرة عداً شديداً، ولا يرغبون بالتعامل معهم البتة. وفي المقابل كان السامريون يكرهون اليهود ويكونون لهم العداً أيضاً.

لكن من هم السامريون؟ إنهم شعب خليط من الوثنيين الذين أتوا من بابل قديماً ومن بني إسرائيل (الأسباط العشرة). وكانوا يسكنون في منطقة السامرة شمال أورشليم وما يُعرف اليوم بمنطقة نابلس في فلسطين. وكانت عبادتهم مزيجاً من اليهودية والوثنية. ولقد كان البطل في القصة التي رواها المسيح هو رجل سامري. فهو الذي أشفق على الرجل اليهودي الذي وقع بين اللصوص وتركوه بين حيٍّ وميت، وليس هذا فحسب بل أسرع لنجدته، وضمّد جراحاته، وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق ودفع عنه الحساب. بينما أهمل كل من الكاهن واللاوي رجُلَي الدين اليهوديين واجبهما تجاه الرجل اليهودي أخيهما المطروح على الأرض، ولم يفعلوا قط شيئاً لنجدته.

البطل هنا، إذن، هو العدو المحتقر والمكروه، الذي لم يبالي بالعداء المستحكم بين شعبه من السامريين واليهود، وأسرع بالتالي لنجاة عدوّه الذي كان على وشك لفظ أنفاسه الأخيرة. بينما كان من المتوقع منه أن يجهز على عدوه ولاسيما أن أحداً لن يكتشف فعلته المجرمة هذه. لقد نظر السامري البطل إلى اليهودي العدو نظرة إنسانية، واعتبره قريبه لا بل أخاه في البشرية. وهكذا صار مثلاً للمحبة الحقة التي يجب أن تُحتذى.

وهنا كان لا بد للمسيح أن يطرح على الناموسي هذا السؤال: "قأي هؤلاء الثلاثة تُرى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص؟" فما كان من الناموسي إلا أن أجاب المسيح قائلاً: "الذي صنع معه الرحمة. فقال له المسيح اذهب أنت واصنع هكذا". أي اذهب أنت ومارس عمل الرحمة والمحبة، ليس مع بني جنسك فحسب بل مع كل إخوانك في البشرية. وبتعبير آخر أراد المسيح أن يقول للناموسي، إذا كنت تسأل عن من هو القريب فهذا هو جوابي لك. إنه كل إنسان من أي جنس أو قومية أو مذهب كان، حتى لو كان عدواً شخصياً لك. وهو بالضبط ما فعله هذا البطل السامري.

وماذا عنك أخي القارئ؟ ما هو موقفك تجاه الناس الآخرين الذين يختلفون عنك في اللون والجنس والقومية والدين؟ هل تعتبرهم من القريبين لك؟ وهل تحبهم كنفسك كما تنص شريعة الله؟ والحقيقة أننا كبشر خطاة لا نقدر على ذلك. لهذا نحن بحاجة إلى نعمة خاصة وقوة من الله لكي نستطيع أن نحب الآخرين كنفوسنا. ولن نحصل على هذه النعمة والقوة إلا إذا اخترنا محبة الله أولاً في حياتنا. أي إذا أتينا إلى الله تائبين عن ذنوبنا، وآمنا بموت المسيح الكفاري من أجلنا على الصليب، وبقيامته المجيدة من بين الأموات. وعندئذ يغفر الله ذنوبنا ويخلقنا خليقة جديدة بواسطة روحه القدس ونصبح من أولاده. وعندها فقط تملأ المحبة الحقة قلوبنا، ونستطيع أن نحب الآخرين كنفوسنا. فهل تودّ صديقي أن تختبر هذه المحبة في حياتك؟